شهادة مفكر حر ...

لماذا أغادر الولايات المتحدة ؟

بقلم هانس م. انزانسبرجر

هانس م. انزا نسبرجر كاتب الماني معروف يبلغ التاسعة والثلاثين من عمره ويدير مجلة تكافح ضد انبعاث القومية الالمانية ، وهو شاعر مبدع ترجمت قصائده الى عدة لغات اجنبية . وقد دعته مؤخرا جامعة « وسليان » الاميركية لالقاء محاضرات فيها على طلبة « مركز الدراسات المتقدمة » ولكن ما لبث ان استقال معلنا انه لا يستطيع بعد ان يعيش في الولايات المتحدة ، ووجه رسالة الى مدير الجامعة يشرح فيها اسباب عزمه على مغادرة الولايات المتحدة ، وهذه هي ترجمة كاملة لرسالته الهامة :

السيد ادوين اتيرنفتون

رئيس جامعة وسليان — ميدلتون ، كونكتيكت

يوم ٣١ كانون الثاني ١٩٦٨

سيدي الرئيس .

ارجوكم ان تقبلوا استقالتي من عضوية مركز الدراسات المتقدمة بجامعة وسليان . وفي الوقت نفسه اود ان اشكركم ، بأفضل ما استطيع ، على كرم الضيافة الذي احطتموني به اثناء مكوثي هنا . واقل ما انا مدين به ، لكم وللجامعة وطلابها ، هو ان اعطيكم اسباب ذهابي.

ولنبدأ ببعض الاعتبارات الاولية . فأنا اعتقد ان الطبقة التي توجه الولايات المتحدة الاميركية والحكومة التي تطبق سياسة هذه الطبقة تشكلان اخطر فئة في العالم كله . ان هذه الطبقة تمثل ، على نحو او اخر ، تهديدا لجميع الذين ليسوا منها . فهي تشن حربا غير معلنة ضد اكثر من مليار انسان : واسلحتها تتراوح بين القصف المركز الكثيف وبين ادق اساليب الاقناع ، اما هدفها فهو اقامة سيطرة سياسية واقتصادية وعسكرية على جميع قوى العالم الاخرى . واما عدوها اللدود فهو التغير الثوري .

ان كثيرا من الامريكيين قلقون قلقا عميقا على تطور بلادهم . انهم يدينون الحرب التي تشن باسمهم ضد الشعب الفيتنامي ، وهم يلتمسون الوسائل لوضع حد للحرب الاهلية الكامنة التي تقوم في احياء الاقليات المعزولة في المدن الاميركية . ولكن معظمهم ما يزالون متعلقين بفكرة ان هذه الازمات ليست الا احداثا طارئة سيئة تعزى الى ادارة رديئة للاعمال والى نقص في ادراك الوقائع ، والى اخطاء فاجعة ترتكبها قوة عالمية تبقى ، مع ذلك ، مسالمة في اساسها ، ومتوازنة وذات نوايا حسنة .

ولا يسعني ان اقبل هذا التفسير . ان حرب الفيتنام ليست ظاهرة معزولة . انها ليست الا اوضح المظاهر وادماها لسياسة عالمية منسجمة تتبع في القارات الخمس . لقد تدخلت طبقة الولايات المتحدة الحاكمة في النزاعات المسلحة التي وقفت في غواتيمالا واندونيسيا ، ولاوس وبوليفيا ، وكوريا وكولومبيا ، والفيليبين وفنزويلا ، والكونغو وجمهورية الدومينيكين . وليست هذه اللائحة شاملة كاملة . فان هناك كثيرا من البلدان الاخرى التي تحكمها ، بدعم من الاميركيين ، انظمة قائمة على القمع والفساد والتجويع . وليس ثمة من يستطيع بعد ان يشعر بالامان لا في اوروبا ولا حتى في الولايات المتحدة .

وليس في الحقيقة التي ذكرتها اي شيء مفاجيء او جديد . ولن أسعى هنا الى تقديم دليل دقيق عنها ، فهناك اخرون قد سبقوني الى ذلك ، وبينهم كثير من الاميركيين امثال « باران » و « هورويتز » و « هوبرمان » و « سويزي » و « زين » و « شومسكي » . واحسبني قد فهمت ان الاوساط الجامعية الاميركية لا تضع مؤلفاتهم موضع الاحترام الكبير ، بل تعتبرها بالية ومضجرة ومتصنعة ، كما لو انها نتاج مخيلة مصابة بالذهان ، او كما لو انها بكل بساطة من الدعاية الشيوعية . وان آليات هذا الدفاع جزء من سلاح المثقفين الغربيين المعتاد . ولما كنت غالبا ما رأيت هذه الآليات تقوم بدورها هنا ، فاني اود ان افحصها عن كثب.

***

والواقع ان الحجة الاولى تتعلق بفقه اللغة . لقد

حسب مجتمعنا أن بامكانه أن يبدو أكثر فأكثر متسأهلا ازاء محرمات اللغة القديمة . وليس ثمة احد تصدمه بعد كلمات الاحرف الاربعة (١) المحترمة واللازمة . وفي الوقت نفسه أبعدت طائفة جديدة من الكلمات ، باجماع في الموافقة ، عن احاديث الاشخاص المتميزين بتربية رفيعة ، كلمات من قبيل « استغلال » و « امبريالية » . فهي قد اكتسبت نكهة داعرة ... وقد استبدل بها المحللون السياسيون شروحا وتفسيرات وايماءات وتعريضات تذكرنا بالتوريات العصابية التي تميز بها العصر الفكتوري . بل لقد ذهب بعض علماء الاجتماع حتى الى انكار وجود طبقة حاكمة . ومن البديهي ان الغاء كلمة « استغلال » ايسر من الغاء ما تعنيه ، ولكن هذا لا يسمح، مع الاسف ، بالتخلص من المشكلة .

وثمة وسيلة اخرى للدفاع تقوم على استعمال علم النفس بمثابة الترس . وقد شرحوا لي انه لا بد لمن يتخيل أن حفنة من الاشخاص القادرين يستطيعون ان يضعوا بقية العالم موضع الخطر ـ ان يكون مصابا بمرض عقلي . وهذا ما يعني ان مراقبة المريض افضل من الاصغاء الى حججه . ولكن ليس من اليسير ان يدافع المرء عن نفسه ضد علماء النفس التحليليين الهواة .

وسأكتفي ببعض نقاط جوهرية . وانا لا اتصور اية مؤامرة ، لانه ليس ثمة مبرر لوجود هذه المؤامرة . فليس ما يشد طبقة اجتماعية ، وبخاصة حاكمة ، هي العلاقات السرية ، بل المصالح المشتركة المشرقة الوضوح والبداهة. وأنا لا اخترع أكاذيب فظيعة ، فالجميع يعرفون ان مديري المصارف والجنرالية والصناعيين الكبار لا يشبهون شياطين متعطشة للدماء كالتي نشاهدها في الصور المتحركة : فهم اشخاص لطاف المعشر ، مغرمون غالبا بموسيقى الفرف ، يميلون الى حب البشر . وهذا النوع من الاشخاص لم يكن يعوز المانيا في اعوام الثلاثين . ان جنونهم لا يصدر عن طبعهم الخاص ، بل عن وظيفتهم الاجتماعية .

وهناك اخيرا وسيلة دفاع كلاسيكية تكنس جميع الحجج التي هي من هذا النوع : هي القول بان القضية قضية دعاية شيوعية . وهذه التهمة ، وليست جديدة ، لا تخيفني . انها مبهمة ، وغير صحيحة ، وغير معقولة . فكلمة « شيوعية » ، حين تستعمل بصيغة المفرد ، تفقد، في آخر المطاف ، كل معنى : فهي اولا تعني تنوعا كبيرا في الافكار المتعارضة غالبا . ثم انه يتفق لي ان رأيي في السياسة الخارجية الاميركية يشاركني فيه اليونانيون المتحررون ورؤساء اساقفة اميركا اللاتينية والفلاحون النروجيون والصناعيون الفرنسيون : وهؤلاء كلهم لا يعتبرون عموما طليعة « للشيوعية » .

والواقع ان معظم الاميركيين ليس لديهم اية فكرة عن الطريقة التي ينظر بها اليهم ، هم وبلادهم ، في سائر

(١) معظم الكلمات الانكليزية الكبيرة مؤلفة من اربعة احرف

أنحاء العالم . وقد أتيح لي شخصيا ان ارى الانظار التي ترافقهم : وهذا ينطبق على السواح في شوارع مكسيكو ، وكذلك على الجنود الذين يقضون اجازتهم في مدن الشرق الاقصى ، وعلى رجال الاعمال الذين يقومون برحلات الى ايطاليا والسويد . وهي النظرة نفسها التي تلقى على سفاراتكم ، وعلى مدمراتكم ، وعلى اللوحات المعلقة على ابواب مكاتبكم ، في كل مكان من العالم . وانها لنظرة مريعة ، لانها لا تميز ولا تتساهل . وسأقول لكم لماذا اتعرفها ، هذه النظرة ، ذلك اني الماني ، واني قد شعرت بها وهي تلقى علي .

واذا حاولتم ان تحللوها ، وجدتم فيها مزيجا من الحذر والحقد ، والخوف والحسد ، والكراهية والاحتقار الكامل . انها النظرة التي توجه الى رئيسكم الذي لا يستطيع بعد ابدا ان يظهر علنا في اية عاصمة من عواصم العالم ، ولكنها كذلك النظرة التي توجه الى العجوز القصيرة الطيبة ، وهي في الطائرة بين دلهي وبيناريس . انها نظرة لا ظلال فيها ولا فروق ، نظرة مانوية ، وانا لا احب هذا النوع من النظرات .

***

وانا ، بخلاف رئيسكم ، لا اومن بالجشع والاجرام الجماعيين . لقد توجه الى الجنود الاميركيين في كوريا بقوله : « لا تنسوا أننا لسنا الا مئتي مليون في عالم يعد سكانه ثلاثة مليارات نسمة . انهم يريدون كل ما نمتلكه ، ولكنهم لن يحصلوا عليه . » ومن الصحيح تماما اننا نفيد جميعا من نهب العالم الثالث . وقد دلل علماء اقتصاد أمثال « دوب » و « بتلهايم » و « جاليه » و « روبنسون » على ان البلاد الفقيرة ، التي نهتم بابقائها متخلفة ، تمول اقتصادنا .

ولكن السيد جونسون يبالغ حين يلمح بان الشعب الاميركي هو شبيه بعملاق متراص الكتلة يضري في الدفاع عن ملكه . ان في اميركا من الموضوعات التي تحمل على الاعجاب اكثر مما يستطيع نظر السيد جونسون ان يكتشف . فانا لا أرى في اوروبا ما يمكن ان يبارن بالمعارك التي تخوضها « اللجنة الطلابية للتنسيق اللاعنفي » و « اللجنة الطلابية للمجتمع الديموقراطي » ولجنة « المقاومة » (٢) . وأضيف الى ذلك ان لهجة التفوق المعنوي التي يرفعها حاليا كثير من الاوروبيين لحساب الولايات المتحدة تغيظني . انهم يتظاهرون بان ينسبوا الى انفسهم انهيار ممالكهم الخاصة على انه فضل شخصي . وهذا ، بالطبع ، نفاق غير معقول .

ومع ذلك ، فان ما تصنعه بلادكم لباقي العالم يعطيكم مسؤولية سياسية ـ وهذا شيء تعلمه الالمان ، على حسابهم ، في الحربين العالميتين . وان وضع بلادكم

ـ التتمة على الصفحة ٧٧ ـ

(٢) ثلاث حركات يسارية تناضل دفاعا عن السود وضد الحرب في الفيتنام .

لماذا أغادر الولايات المتحدة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

***

يذكرني ، في اكثر من نقطة ، بالوضع الذي كانت عليه بلادي في اعوام الثلاثين . وانا اطلب منكم ، قبل ان ترفضوا هذا التشبيه ، ان تذكروا انه لم يكن ثمة ، في تلك الحقبة ، من سمع بغرف الغاز او فكر ببنائها ، وان رجال دولة محترمين كانوا يقصدون برلين ليصافحوا هتلر ، وان معظم الاشخاص كانوا يرفضون ان يصدقوا ان المانيا كانت قد وضعت مشروع السيطرة على العالم . كان الجميع بالطبع يستطيعون ان يروا ان التمييز والتعذيب العنصريين منتشران انتشارا كبيرا ، وان الميزانية العسكرية تزداد بوتيرة تنذر بالخطر ، وان المانيا كانت تمضي في تدخلها في الحرب ضد الجمهوريات الاسبانية.

ولكن تشبيهي يقف عند هذا الحد : فالحق ان قادتكم اليوم لا يكتفون بان يمتلكوا طاقة تدميرية ما كان للزعماء النازيين ان يحلموا بها ابدا ، بل انهم قد انجزوا تكنيكات هي من الدقة والبراعة بحيث لم تكن تخطر اطلاقا على البال في تلك الفترة القاصرة على الصناعة اليدوية .

وقد اصبحت المعارضة الكلامية اللفظية ، اليوم ، رياضة غير مؤذية ، رياضة مسموحا بها ، مقننة ، بل يشجعها القادرون ، الى حد ما . وقد اصبحت الجامعات الميدان المفضل لهذه اللعبة الملتبسة . صحيح ان المتعصب الضيق الافق وحده هو الذي يستطيع أن يدعي ان الرقابة والقمع المكشوفين هما افضل من الحرية الرخصة الخادعة التي نتمتع بها اليوم . ولكن من البلاهة الا يفهم المرء ان هذه الحرية نفسها لا تفعل الا ان تقدم مبررات ، وتطرح مشكلات ، وتنصب اشراكا لمن يعارضون النظام .

***

لقد احتجت الى ثلاثة اشهر لافهم ان التسهيلات التي كنتم تمنحونني اياها ستكون نتيجتها النهائية ان تحملني على الاستسلام ، وانني اذ قبلت دعوتكم (مع الضمانات التي كنتم تعطونني اياها) كنت افقد جمهوري، وان مجرد كوني هنا ، وبهذه الشروط ، سيفقد كل ما عساني اقوله كل قيمته . « لكي تحكم على مثقف ، لا يكفي ان تدرس افكاره . ان ما يعول عليه هو التوافق بين افكاره وافعاله . » هذه العبارة التي قالها ريجي دوبريه ، استطيع ان اتبناها وانا في وضعي هذا . فلكي اثبت انني أومن حقا بما اقول ، فلا بد لي من ان أضع حدا لنشاطاتي.

ان هذا ضروري ، ولكنه ليس كافيا . والواقع ان دراسة الامبريالية في الرخاء شيء ، ومواجهتها في الامكنة التي تظهر فيها وجها اقل جدارة بالحب شيء آخر . لقد قمت برحلة الى كوبا . وقد رأيت في مطار مكسيكو رجال المخابرات السرية يلتقطون صورا لجميع الذين كانوا مسافرين الى لاهافانا ، وقد رأيت ، السفن الحربية الاميركية تتجول بحذاء الشواطيء الكوبية ، ورأيت في خليج الخنازير آثار الانزال الاميركي ، ورأيت الجروح التي خلفها الاقتصاد الامبريالي في جسم بلد صغير وفي روحه ، ورأيت نتائج حصار يجبر الكوبيين على ان يستوردوا كل ملعقة من تشيكوسلوفاكيا وكل صفيحة بنزين من الاتحاد السوفياتي ، لان الولايات المتحدة تحاول منذ سبع سنوات ان تحملهم على الاستسلام بالتجويع .

ولقد قررت ان اذهب الى كوبا ، وان اعمل فيها فترة طويلة . وليس هذا تضحية اقوم بها على الاطلاق : ان لدي بكل بساطة شعورا ان بامكاني ان اتعلم من الشعب الكوبي اكثر مما اتعلم من طلاب جامعة « وسليان » ـ وانني استطيع ان اكون هناك اكثر نفعا مما اكون هنا .

ان كتابة هذه الرسالة اليكم هي وسيلة مسكينة لاشكركم على ضيافتكم ، ويؤسفني كثيرا الا استطيع ان اقدم شيئا آخر مقابل أشهر الامان الثلاثة التي قضيتها عندكم . انني أدرك بالتأكيد ان حالتي الشخصية لا أهمية لها بالنسبة للآخرين . ومع ذلك فان الاسئلة التي تثيرها لا تعنيني وحدي . فاسمحوا لي اذن بأن أجيب عليها ، علنا ، بقدر طاقتي .

وتفضلوا بقبول ....

ترجمة « الآداب »

قصة الأرض والفلاح والاصلاح الزراعي في الوطن العربي

للاستاذ عبد الرزاق الهلالي

مدير المصرف الزراعي العراقي

موسوعة قريدة لتاريخ الاقطاع في مختلف الاقطار العربية

دراسة مقارنة للاصلاح الزراعي في ثمانية اقطار منها

بأسلوب أدبي شيق وتحقيق علمي دقيق

مذيلة بمجموعة قوانين الاصلاح الزراعي

الصادرة في الاربعة من هذه الاقطار

تطلب من دار الكشاف ومن سائر المكتبات

٦٥٠ صفحة قطع كبير ـ ثمن النسخة ـ مجلدة ـ (١٥) ل.ل.